وليم كلي رايت

تاريخ الفلسفة الحديثة

ترجمة
محمود سيد أحمد

تقديم ومراجعة
إمام عبد الفتاح إمام

جديدة، لا تهتم بالإعداد لحياة مستقبلية، بل تهتم بالتحسين الفيزيائى والأخلاقى للطبقات المتواضعة فى هذا العالم. ولقد نجح هذا الرجل النبيل المتحمس، الذى خسر ثروته، لكنه استمر فى الإيمان بحلول نظام اجتماعى أفضل، فى جذب كثير من الطلاب فى مدرسة الهندسة. وكان من بينهم «أوجست كونت»، الذى أوحى له «سان سيمون»، فى أول الأمر، بمعظم أفكاره المهمة فى صورة غير تامة. ومن بين الفلاسفة الكلاسيكيين الذين تأثر بهم «كونت» «بيكون»، الذى، ربما، وجه نظره إلى الاستقراء، و«ديكارت» الذى وجه نظره إلى الاعتماد على المناهج الرياضية والتنظيم النسقى للتفكير، ورجال عصر النهضة الفرنسيين، الذين وجهوا نظره إلى حماسه للتقدم، و«هيوم» الذى وجه نظره إلى مذهبه الوضعى.

٢ ـ حياة كونت

كان أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) الابن الأكبر لموظف صغير يعمل فى مكتب تحصيل الضرائب فى«مونبلييه»، وكان ملكيًا وكاثوليكيًا ورعًا. وتفوق أوجست على كل الطلاب الآخرين فى المدرسة الثانوية المحلية، وكان الأول على كل الولاية فى امتحان مسابقة للالتحاق بمدرسة الهندسة فى باريس عندما كان فى سن الخامسة عشرة، وكان صغيرًا فى السن حتى إنه لم يُسمح له بالالتحاق بها حتى بلغ سن السادسة عشرة. ودرس، فى هذه المدرسة، على يد أفضل المدرسين فى فرنسا، الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء. وكتب التماسًا وقع عليه هو والتلاميذ الآخرون، قبل معركة «واترلو» بمدة وجيزة، مطالبين بمساعدتهم فى الدفاع الوطنى. وزار «نابليون» المدرسة، واحتفى به بإخلاص. وبعد ذلك ليس بمدة طويلة، بعد استعادة إقليم بوربون، ضايق أحد المدرسين التلاميذ، فقد كان يجلس القرفصاء على كرسى، ويضع قدمه على منضدة عندما كان يوجه تلاميذه. وعندما تم استدعاء كونت لكى يقص الحكاية، تقلد موقفًا مشابهًا. وعندما وبخه ذلك المدرس، رد قائلًا «سيدى، اعتقد أنه من الصواب أن أحتذى بك». وكتب التلاميذ التماسًا ضد المدرس. وانتهزت السلطات ـ التى اعتبرت مدرسة الهندسة مكانًا للعصيان الجمهورى ـ الفرصة لكى تحافظ على النظام وتطرد المخالفين. وبذلك فقد كونت عندما كان فى سن الثامنة عشرة الفرصة لكى يحصل على تعليم عن طريق مساعدة عامة. وبعد ذلك، عندما واصل

تعليمه، كان مضطراً إلى أن يعول نفسه بقدر ما يستطيع، عن طريق المساعدة القليلة التى استطاع أن يقدمها والده له. ظل كونت الفقير طوال حياته يخالف باستمرار الموظفين الرسميين بطريقة ما ويسىء إليهم، وكانت نتيجة ذلك أنه خسر الدعم المالى الذى كان فى حاجة إليه كما كان يستحقه.

تتلمذ كونت على يد «سان سيمون» لمدة ست سنوات، وساهم فيما ينشره ببعض المقالات، وكان يعول نفسه عن طريق التدريس الخصوصى، ويحضر المحاضرات التى يستطيع حضورها، ويعلّم نفسه بقدر كبير عن طريق القراءة الخاصة فى الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والبيولوجيا، وفلسفة «سان سيمون» الاجتماعية وزملائه. ونشر سان سيمون، فى عام ١٨٢٤، كتابه «مرشد سياسى للعمال»، الذى تضمن مقالًا كتبه كونت ولم يوافق عليه سيمون تمامًا. فافترقا بعد ذلك. وأرسل كونت نسخًا من ذلك المقال ـ وكان بعنوان «خطة للعمل العلمى الضرورى لتنظيم المجتمع من جديد» ـ إلى المفكرين المشهورين فى ذلك الوقت، وكان من بينهم «توماس جيفرسون»، و«جيمس مانرو». وجذب المقال، الذى سبق بصورة مجملة كثيراً من فلسفة كونت المتأخرة، انتباه كثير من رجال ذلك العصر المتميزين، مثل «جيزو» Guizot، و«بوانسو» Poinsot، و«فون همبولت» V. Humboldt، و«الدوق دى برولى» Duc de Broglie. وأصبح كونت شهيراً فى الحال.

وبالطريقة العارضة التى يقابل بها الشباب الأعزب الفتيات فى باريس، وقع كونت فى حب «كارولين ماسان»، وكانت يتيمة تعول نفسها كخياطة، لكن كان لها علاقات شاذة مع الرجال. فى النهاية تزوجها كونت، ويبدو أنها أخلصت له بطريقتها الشاذة. ووقفت بجانبه بإخلاص عندما أصيب بإنهيار عصبى حاد، وأعادت له سلامة العقل. وكانت تطمح أن يتقدم فى مهنته بطرق تزودهما بدخل مناسب، لكن لا تعوق أبحاثه العلمية. وعندما أصيب بضائقة مالية صعبة، أرادت أن تساهم فى معيشتهما عن طريق أموال تحصل عليها عن طريق البغاء مع رجال آخرين. ولم يوافق كونت على ذلك. وانفصلا أخيراً، غير أنها استمرت فى الاهتمام المخلص بسيرته، وعاونها بسخاء لتدعيمها لدخله الضئيل.

وكتب كونت ونشر بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٤٢ عمله الرئيسى «الفلسفة الوضعية» (دروس فى الفلسفة الوضعية)، فى ستة مجلدات. استنبط مضامين كل مجلد فى

نزهات منعزلة، وألقاها فى محاضرات عامة بدون ملاحظات، ثم كتبها على عجل كبير. وأخرج فى عمل قصير، وهو «دروس فى الروح الوضعية» فى صورة أكثر شعبية مجمل فلسفته فى ذلك الوقت؛ وغالبًا ما يوصى بهذا الكتاب بوصفه أفضل الكتب بالنسبة للمبتدئين.

وبعد أن حُرم من شغل منصب الأستاذية فى مدرسة الهندسة، على الرغم من مؤهلاته المتألقة، أعال نفسه عن طريق وظائف مؤقتة؛ فقد عمل مدرسًا فى مدرسة الهندسة، وفى معهد «لافل»، وانتقل بضعة شهور كل عام فى المقاطعات بوصفه مدرسًا خصوصيًا وممتحنًا فى مدرسة الهندسة، ويعطى توصيات لتلاميذ خصوصيين. وقدَّم فلسفته الوضعية الخاصة فى محاضرات عامة جعلته مشهوراً، غير أنه لم يأخذ أجرًا ماليًا. ومن سوء حظه أنه خالف موظفى مدرسة الهندسة بأن قلل إلى حد ما من شأن الرياضيات فى مجلد من مجلدات كتابه «دروس فى الفلسفة الوضعية»، فكانت نتيجة ذلك أن نضبت موارد دخله فى الحال. فجاء «ليترى» معجب فرنسى، وجون ستيوارت مل، متعاطف انجليزى، لإنقاذه، وجمعا أموالًا كل سنة لإعالته، تتراوح بين ١٢٠ إلى ٣٠٠ جنيه استرلينى. وقد مكّن ذلك كونت من أن يكرس كل وقته بعد عام ١٨٤٨ لدراساته الفلسفية.

وتعرف كونت، فى عام ١٨٤٤، على السيدة «كلوتيلد دى فو» Clotilde de vaux، وكانت زوجة مختلس وكانت جميلة وصغيرة فى السن، وقد اختفى ذلك المختلس من فرنسا لكى ينجو من جريمة مالية. وكان الطلاق أمرًا مستحيلًا بالنسبة لكونت أو كلوتيلد بسبب قوانين ذلك العصر، ولذلك لم يتمكنا من الزواج. وبينما قدرت كلوتيلد كونت بوصفه صديقًا، لم تحبه، وكانت امرأة فاضلة لم ترتبط معه بأية علاقة غير مشروعة على الإطلاق. وكان لها اهتمامات فكرية وبعض المواهب الأدبية، وكتبت رواية وبعض قصائد الشعر القصيرة نُشرت قبل وفاتها بمرض السل وذلك فى ربيع عام ١٨٤٦ . وكان كونت مخلصًا لها أثناء حياتها، وحافظ على ذكراها طوال حياته. وكان يقضى كل صباح ومساء وقتًا منتظمًا فى مناجاة خيالية معها، كان يعتبرها ضربًا من الصلاة. كان يزور قبرها كل أسبوع. وتغيرت رؤيته الفلسفية بصورة ملفتة للنظر بعد ذلك. فقد اعتقد الآن أن دينًا جديداً لابد أن يوجد لكى يحافظ على قيم المذهب الكاثوليكى بدون مبادئه الدينية. ويجب على الإنسان أن يعبد البشرية من حيث إنها بديل لله؛ أى يجب عليه أن يتأمل البشرية عن

طريق صورة المرأة التى كانت تعنى الكثير بالنسبة له فى حياته أمام عقله، فى مكان «مريم العذراء». ولا يمكن أن تكون الفلسفة عقلية تمامًا، إذ يجب أن نتأملها بالحب، والوجدان، والإخلاص. وأصبح ذلك الموقف المتغير ظاهرًا فى كتابه الرئيسى الثانى «السياسة الوضعية» (System de politique positive)، الذى ظهر فى أربعة مجلدات بين عامى ١٨٥١ و ١٨٥٤ . ولم يحب كثير من مؤيديه تلك التجديدات الدينية، على الرغم من أنها لم تكن، بوجه عام، غير متسقة مع فلسفته السابقة، بل كانت تكملة لها.

وأصبح أوجست كونت، الذى كان يعيش فى هدوء فى شقة متواضعة، وتقوم حارسة المنزل «صوفى بلو» بخدمته بإخلاص، وكذلك زوجها «مارتن توماس» بعد زواجها، نقول أصبح قائدًا لمجموعة صغيرة،ولكنها جادة، من الأتباع ـ وهم وضعيون ـ تطلعوا إلى انتشار الفلسفة الجديدة التى ستنظم المجتمع، وتصبح دين البشرية. وتم الحفاظ على شقة كونت بإخلاص عندما تركها حينما توفى، ولا يزال الوضعيون يقومون بزيارتها.

٣ ـ المذهب الوضعى وقانون المراحل الثلاث

كان كونت يطمح فى حياته إلى تنظيم المجتمع من جديد بطريقة تكون ذات فائدة مستمرة بالنسبة لجميع طبقات الشعب، وتكفل السلام الكلى بين الأمم، وتمنع الصراعات الاقتصادية داخل كل أمة، وتضمن للجميع حياة كريمة شريطة أن يقوموا بدورهم، ويساندوا تقدم العلم والثقافة بكل وسيلة. والوصول المناسب إلى هذه الفلسفة هو النظر إلى كونت على أنه مصلح اجتماعى. وكان يرى فى تفكيره المبكر أن الإصلاح الاجتماعى يحدث أساسًا عن طريق تطوير العلوم وتطبيقها عمليًا على أساس وضعى. وتلك هى وجهة نظر الفلسفة الوضعية. ويتضمن ذلك التنظيم الجديد فى كتابه «السياسة الوضعية» التأكيد على الأخلاق والدين كما يتصورهما.

ويتفق كونت مع هيوم فى القول بأنه يستحيل بالنسبة لنا أن نكتشف العلل أو الجواهر الأصلية. لأننا لانستطيع أن نلاحظ سوى الوقائع التى تتجلى لحواسنا. وعلى أية حال، نحن نستطيع أن نفعل ذلك. فنحن نستطيع أن ننتبه إلى الظروف التى تحدث وفقًا لها الظواهر، ونصوغ بالتالى قوانين لهذه الظواهر. وقانون الجاذبية هو مثال ممتاز لذلك. فنحن لا نعرف ما عساها أن تكون المادة بالفعل، لكن عندما نستخدم جذب الأجسام إلى

الأرض بوصفه معياراً للقياس، فإننا نستطيع أن نصوغ قانونًا مطردًا، من حيث إنه يهم، على الأقل، ظواهر أرضية. إن الاختلاف بين المذهب الوضعي عند كونت والمذهب الشكي عند هيوم هو أمر ذو أهمية خاصة. فكونت تشكك مثل هيوم فى إمكان تحصيل أى معرفة بالعلل المجهولة للإحساسات، أو ما يطلق عليه كانط اسم «الأشياء فى ذاتها». ويرى كونت، من ناحية أخرى، بصورة أكثر وضوحًا مما رأى هيوم أن العلم يمكن، مع ذلك، أن يخبرنا عن أشياء كثيرة، فهو يمكن أن يخبرناعما يحدث، ويمكن أن يصوغ قوانين تمكننا من التنبؤ بما سيحدث. وعندما نعرف تلك القوانين، نستطيع أن نخطط للمستقبل، ونستطيع فى بعض الحالات أن نغيّر مجرى الأحداث، ونتحكم بصورة فعالة فى حالات حولنا، ونخطط لمجتمع أفضل. وفى مقابل المذهب الشكى الذى يوجه الانتباه إلى ما لا نستطيع أن نعرفه، يأمرنا المذهب الوضعى بأن نجمع كل المعرفة التى تكون متاحة لنا بالفعل، ونستخدمها من أجل تقدم البشرية. إن العقبات الأساسية للإصلاحات الاجتماعية هى: أولاً: لم تصل كل العلوم إلى أساس وضعى كامل، وثانيًا: لابد من ابتكار علم جديد، أسماه كونت فى البداية «الفيزياء الاجتماعية»، ثم أسماه بعد ذلك «علم الاجتماع»، وهى كلمة من صكه الخاص.

ومن المعتقدات الأساسية عند كونت «قانون المراحل الثلاث»؛ المرحلة اللاهوتية، والمرحلة الميتافيزيقية، والمرحلة الوضعية. فى المرحلة الأولى من تلك المراحل، مال الناس الذين كانوا على وعى بقوة إرادتهم الخاصة إلى أن ينسبوا كل الأحداث الموجودة حولهم إلى إرادات لكائنات فعالة تشبههم بصورة كبيرة أو قليلة. وبدأت تلك العملية بما يطلق عليه كونت «الفتشية» Fetichism(*) (والتسمية الأكثر شيوعًا الآن هى المذهب الحيوى)(**): أى افتراض أن كل شىء حى، ويفعل وفقًا لإرادته الخاصة، ولابد من استرضاء تلك الأرواح القوية. والخطوة الثانية فى تطور المرحلة اللاهوتية هى «تعدد الآلهة» Polytheism التى تُنسب فيها الإرادة المسيطرة الموجودة فى كل مجال من الطبيعة

(*) الفتشية Fetichism كلمة برتغالية الأصل تعني التعويذة أو التميمة أو الحجاب، والمقصود ـ بصفة عامة ـ ضرب من العبادة الخرافية... إلخ انظر في معانيها المختلفة كتابنا «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ مكتبة مدبولي عام ١٩٩٦ (المراجع).

(**) المذهب الحيوي Animism ويسمى أحياناً «مذهب الأرواح» فهو مشتق من الكلمة اللاتينية Anima التى تعنى «الروح ـ أو النفس» وهومذهب يجعل الأرواح مبثوثة فى جميع الأشياء (المراجع).

مثل السماء والبحر أو الأرض، إلى إله مفرد. والخطوة الثالثة والأخيرة هى أن كل تلك الآلهة تُجمع فى إله واحد، يسيطر على كل الأشياء، وذلك هو «مذهب التوحيد» monotheism. وكانت المرحلة اللاهوتية تسود بين البدائيين، ولا يزال استمرارها عند القدماء والعصور الوسطى مهيمنًا بصورة كبيرة. ومع ذلك، حتى الشعوب الأكثر بدائية ربما لا تكون تمامًا فى المرحلة اللاهوتية؛ لأنهم نظروا إلى بعض الأحداث على أنها تتبع أحداثًا أخرى بطريقة طبيعية دون تدخل أرواح، وهم، إلى هذا الحد، فى المرحلة الميتافيزيقية أو المرحلة الوضعية. وعلى أية حال، تسود المرحلة اللاهوتية، فى الغالب، بين الشعوب البدائية فى صورة «الفتشية»، ثم حل محلها بالتدريج «مذهب تعدد الآلهة» فى الحضارات المبكرة؛ ثم أفسحت المجال «لمذهب التوحيد» بتركيز السلطة فى الأمبراطور الرومانى، وتحت حكم البابا فى العصور الوسطى. وكانت الحكومة السياسية فى تلك المرحلة من التفكير هى حكومة الملكيات المطلقة؛ وكانت الحرب مستمرة. ويعتقد كونت أن هناك، تقريبًا، تلازمًا بين التنظيم السياسى والاجتماعى لشعب ما والطريقة التى تفسر بهما الطبيعة.

وقد حلّت المرحلة الميتافيزيقية بالتدريج محل المرحلة اللاهوتية. وهذه المرحلة الميتافيزيقية ليست منطقية تمامًا، فهى لا تشير إلا إلى انتقال فحسب. فى هذه المرحلة، نجد أن الأرواح السابقة أو الآلهة لا تكون أشخاصًا بل تصبح قوى مجردة. وكان كثير من العلم الحديث المبكر من هذا الطابع: لأن الناس تصوروا بصورة غامضة قوى«كيميائية» أو «حيوية» تسرى فى الأشياء من حولهم، وتجعل الأشياء تتغير فى المظهر. وتميل تلك القوى الكثيرة فى الوقت المناسب إلى أن تتوحد فى قوة واحدة، تُسمى «الطبيعة». وتفعل «الطبيعة» هذا، وذاك؛ لأن قوانين الطبيعة خيّرة... إلخ. ويعتقد كونت أن أناس عصر التنوير فكروا تقريبًا بتلك المصطلحات الميتافيزيقية. إذ أنهم نقلوها إلى فلسفتهم الاجتماعية، وآمنوا بأوهام مثل «العقد الاجتماعى»، و«الحقوق الطبيعية»، و«سيادة الشعب». لقد غالوا فى التأكيد على الأنانية والحقوق الفردية، ولم يعرفوا الغيرية وواجبات المجتمع معرفة كافية. ومع ذلك حققوا تقدمًا مهمًا، كالإصرار على أن الحرب يجب أن تقتصر على الحرب الدفاعية، وتلك، على الأقل، خطوة فى الاتجاه نحو استبعادها تمامًا. وكانوا مؤمنين عظماء بالتسامح الدينى، وبالإطاحة بكل سلطة تقليدية فى الدولة والكنيسة

عن طريق ثورات شعبية. وربما يكون ذلك الموقف له ما يبرره بالنسبة لفترة انتقالية، كان لابد أن تتحطم فيها الدساتير الفاسدة، غير أنها لا يمكن أن تسفر عن أى شىء بنَّاء على المدى البعيد. إن كونت لم تكن لديه ثقة بالديمقراطية والحكومة الشعبية، ولهذا يضع الايمان بها فى المرحلة الميتافيزيقية.

والمرحلة الثالثة والأخيرة هى، بالتأكيد، المرحلة الوضعية. فى هذه المرحلة يكتفى العلماء بملاحظة قوانين الظواهر، دون أن ينسبوا إليها أرواحًا أو قوى مجردة غير مرئية ولا يمكن معرفتها. وقد يفترض أن كل قوانين الظواهر تُرد إلى قانون واحد، ربما يكون قانون الجاذبية، غير أن كونت يعتقد أن مثل هذا الرد سيكون مستحيلًا باستمرار؛ إنه سيكون كذلك، بالتأكيد، فى الوقت الحالى. وسوف نناقش البناء الاجتماعى والسياسى للمرحلة الوضعية فيما بعد.

إن المجتمع الحالى مضطرب مشوش، لأن الناس يفكرون جزءًا من الوقت عن طريق مرحلة من المراحل الثلاث، ويفكرون بقية الوقت عن طريق المرحلتين الأخيرتين؛ ويصدق ذلك فى مجال العلوم الطبيعية، وفى مجال الموضوعات الاجتماعية على حد سواء. أما النظام والتقدم، فلا يمكن أن يتحققا ويتم التوفيق بينهما على وجه مرض حتى يصل التفكير والحياة إلى المرحلة الوضعية تمامًا.

٤ ـ تصنيف العلوم

يؤكد كونت أنه من الممكن أن نرتب العلوم ترتيبًا هرميًا فى النظام الآتى: الرياضيات، الفلك، الفيزياء، البيولوچيا، وعلم الاجتماع. ويجب أن نلاحظ أن كونت لا يناقش هنا سوى العلوم المجردة، ولا يناقش العلوم التطبيقية التى تعتمد عليها، مثل الطب، والهندسة. وذلك هو النظام الذى ظهر فيه كل علم من الناحية التاريخية ، والذى بلغ فيه أيضًا المرحلة الوضعية. إن كل علم هو من الناحية المنطقية أكثر بساطة وأقل تعقيدًا من العلوم التى تليه. وعلاوة على ذلك، فإن كل علم هو أكثر عمومية فى تطبيقه من العلوم التى تليه: فالرياضيات تنطبق على كل شىء، وعلم الفلك ينطبق على كل الأجسام؛ ولا نعرف إذا كانت الفيزياء والكيمياء تنطبقان على ظواهر غير الظواهر الأرضية، ولا تهتم البيولوچيا إلا بالكائنات الحية، وينحصر علم الاجتماع فى دراسة

البشر، وبقدر محدد فى دراسة الحيوانات العليا. إن كل علم يكون أكثر دقة، ويستخدم إلى حد كبير الاستنباط، ويكون أقل اعتماداً على الملاحظة والاستقراء، من تلك العلوم التى تليه، على الرغم من أنها لابد أن تبدأ كلها، بالتأكيد، من الملاحظة.

وسبب الترتيب التاريخى هو أن كل علم يعتمد على تلك العلوم التى تسبقه، ولا يمكن أن ينشأ حتى تصل إلى مرحلة معينة من النضج. ولا يمكن لعلم أن يسيطر على أى علم دون معرفة ما بالعلوم السابقة فى السلسلة (ربما يفسر ذلك إعطاء كونت محاضرات موسعة فى الفلك للعمال المهتمين بالإصلاحات الاجتماعية). ويصر كونت على أن ذلك هو الترتيب العام الذى تنشأ فيه العلوم. إنه يعرف أن هناك تفاعلًا متبادلًا بينها؛ أعنى أن الاكتشافات الجديدة فى الفيزياء قد تؤدى إلى تطورات أبعد فى الرياضيات.

ويعارض كونت بشدة جميع المحاولات الموجودة فى مذهب الرد reductionism، أو كما يسميه «المذهب المادى»: فمن المستحيل أن نرد باستمرار ظواهر الحياة إلى الكيمياء، أو نرد ظواهر الكيمياء إلى الفيزياء، أو نرد ظواهر الفيزياء إلى الرياضيات؛ لأن ظواهر كل علم تحكمها قوانين جديدة خاصة بهذا العلم، بالإضافة إلى قوانين العلوم الأبسط التى تسبقه. ويعالج علم الاجتماع؛ أعلى العلوم النظرية وأكثرها عينية، ظواهر جميع العلوم الأكثر تعقيدًا وتغيراً، ولهذا السبب يكون أكثر العلوم صعوبة وآخرها فى النشأة.

ولم يذكر كونت علم النفس فى التصنيف الذى وضعه. رغم أن كونت كان مهتمًا بعلم النفس، إلى أقصى حد، ويناقشه بإسهاب، ويخضع ما يقوله، غالبًا، للبيولوجيا، وأحيانًا لعلم الاجتماع. ويعتقد أنه لا يمكن تعلم أى شىء عن طريق الاستبطان، لأنه لابد من دراسة الظواهر الذهنية فى علاقتها بوظائف المخ، ولابد من ملاحظة سلوك الناس فى أنشطتهم الاجتماعية. ويبدو أن كونت كان مبشراً بالمدرسة السلوكية الحديثة فى علم النفس، على الرغم من أنه قد انقضى عهد تفسيراته بالتفصيل منذ مدة طويلة. وسلمت بصحة علم نفس الملكة العقلية، والنظريات الدماغية لدى «جال» Gall، السائدة فى فرنسا فى ذلك الوقت.

ويبدو أن المنطق يستحق أن يكون فى المرتبة الأولى فى السلسلة؛ لأن كل بحث علمى يطابق قوانين المنطق. ولقد فهم كونت الاختلاف بين الاستقراء والاستنباط والاستخدام الملائم للفروض، غير أنه لم يعتقد، كما يبدو، أنه يجب معالجة مناهج التفكير على أنها علم منفصل؛ وقد يكون من الأسباب التى دعته إلى ذلك أن كثيراً مما كُتب تحت عناوين

المنطق كان سيكولوجيًا، وكان، لدى كونت، كما رأينا، مبرراته لاستبعاد علم النفس من القائمة. ونظر كونت إلى الأخلاق على أنها جزء من علم الاجتماع عندما طوّر الفلسفة الوضعية، فقد أضاف مؤخراً، فى كتابه «السياسةالوضعية» الأخلاق التى تشمل صياغته للدين، إلى القائمة، بعد علم الاجتماع، ومن ثم وضعها فى قمة الترتيب الهرمى.

ولا تظهر الفلسفة، بصورة طبيعية، فى قائمة العلوم. وتنتمى الميتافيزيقا بالمعنى القديم لدراسة الجواهر، والعلل، والمبادىء البعيدة الأخرى إلى مرحلة من التفكير يجب أن تُلغى. وتتكون فلسفته الوضعية الخاصة من تفسير نسقى وتصنيف للعلوم وتطور مضامينها من أجل إصلاح اجتماعى.«إن كل ما كتبه يعده فلسفة وضعية، تقوم على وقائع، أى على ما هو واقعى. وهى مفيدة، وتهدف إلى تحسين الحياة. وتعالج ما هو مؤكد ولا يمكن الشك فى صحته؛ وقد كان فلاسفة العصور الأولى فى شك دائم ونزاع مع بعضهم البعض؛ ولا يستطيع أن يشعر الناس، بحق، بيقين فى أى موضوع حتى تتحقق المرحلة الوضعية. وتعنى «الوضعية» ما هو محدد بصورة دقيقة، فى مقابل غموض الفكر السابق. إن الفلسفة الوضعية إيجابية وبناءة، فى مقابل الهدم السلبى للمرحلة الميتافيزيقية الانتقالية. والفلسفة الوضعية نسبية، وليست مطلقة. فهى تدرك أن هناك تطوراً فى العلم وفى المجتمع أيضًا. وتصف كيفية حدوث الظواهر، وكيفية إمكان التنبؤ بها؛ وهى ترفض السؤال عن طبيعتها البعيدة. إنها لا تزعم أنها تكتشف عللًا غائية أو أغراضًا فى الطبيعة. وهى تقبل تعاليم هيوم وكانط التى تذهب إلى أننا لسنا سوى بشر، وأننا نستطيع أن ننظر إلى العالم ببساطة، من وجهة نظرنا، ولا كما يوجد فى ذاته. إن العالم يمكن أن يوجد بدوننا، لكنا لا نوجد بدونه. ومع ذلك، لسنا مجرد نتاجات للطبيعة، كما يزعم الماديون، ففى حين أننا نعتمد على العالم، إلا أنه يوجد لدينا اختيار ما خاص بنا، فلسنا آلات. ويصدق ذلك إلى حد ما بالنسبة لكل الكائنات العضوية؛ ولذلك يرفض كونت تفسير ديكارت الآلى للحياة.

٥ ـ علم الاجتماع

يتضمن علم الاجتماع ـ العلم الجديد الذى أعطى له كونت اسمه، والذى حاول تأسيسه، كما يتصوره ـ كثيراً مما نسميه علم النفس الاجتماعى، والاقتصاد، والعلم

السياسى، والأخلاق، وفلسفة التاريخ. وجميع هذه الموضوعات مترابطة بالتأكيد، ومن المفيد بالنسبة له أن يعالجها تحت عنوان واحد. وإذا اتبعنا مماثلة العلوم السابقة فى قائمته، فإننا نستطيع أن نميّز فى علم الاجتماع بين «علم الاجتماع الاستاتيكى»، و«علم الاجتماع الدينامى». وتمثل الهندسة الجانب السكونى من الرياضيات، فى مقابل الميكانيكا، التى هى دينامية. وينظر علم التشريح إلى الكائنات الحية من الناحية البنائية وبالتالى من الناحية الاستاتيكية، فى حين أن علم الفسيولوجيا يدرس وظائفها من الناحية الدينامية. ويفحص علم الاجتماع الاستاتيكى الشروط الدائمة لوجود المجتمع، ويشدد على النظام، بينما يتعقب علم الاجتماع الدينامى تطور المجتمع، ويؤكد التقدم. ونحن نريد كلًا من النظام والتقدم؛ فليس من الممكن أن يكون لدينا التقدم بدون النظام، كما أدرك جيل كونت بصورة مؤلمة آخذين بعين الاعتبار التاريخ المعاصر لفرنسا. ولذلك لابد أن يدرس علم الاجتماع كلًا من علم الاجتماع الاستاتيكى وعلم الاجتماع الدينامى، وفصل العلمين فى مناقشة كونت يكون أمرًا اضطراريًا، ومع ذلك فهو ليس بلا مغزى.

وتكشف دراسة علم الاجتماع الاستاتيكى عن الارتباط الوثيق الذى يوجد فى أى وقت بين أفكار بلد ما، وعاداته، ومؤسساته، وتفاعلها المتبادل، وإذا بدا ذلك قولًا مبتذلًا الآن، فإن كونت يعد من أوائل الذين وجهوا الانتباه إليه. ويعتقد كونت، متأثرًا فى ذلك بهيوم وآدم سميث، أن المجتمع لا ينشأ من حسابات أنانية وفاترة، كما اعتقد هوبز مثلًا، بل ينشأ بالأحرى من غريزة التعاطف الاجتماعى، التى حدد لها «جال» مكانًا فى المخ. إن أصل التعاطف يكون فى تمييز الأجناس بين الحيوانات، واهتمامها بنسلها. صحيح أن الغرائز الأنانية هى عند البشر أقوى، فى الأصل، من التعاطف الاجتماعى، إلا أن التعاطف الاجتماعى يقوى بصورة متزايدة مع تطور الذكاء وحياة الأسرة. لأن الأسرة، وليس الفرد، هى الوحدة الاجتماعية الحقيقية: إذ يتعلم الفرد بداخلها كيف يعيش، ويعمل من أجل الآخرين.

ومن الصعب جدًا الإقرار باتحادات اجتماعية أوسع من الأسرة، لكن لا يمكن الاستغناء عنها. فعندما يدرك الفرد، فى ضوء الفلسفة الوضعية، أنه عضو وحيد فى الجنس البشرى، فإنه يقدر أهمية المجتمع بالنسبة له، ويرى أن التطور لا يكون ممكنًا إلا بالتعاون المتبادل. إنه يبدأ يشعر بأنه زميل فى العمل مع أناس آخرين داخل كل اجتماعى كبير.

وحتى العمل الأكثر وضاعة يكتسب كرامة، عندما يدرك العامل أنه يشارك عن طريق عمله فى مهام مشتركة من أجل الرخاء العام. ويبدو أن كونت يعتقد أن المشكلة هى، أساسًا، مشكلة عقلية وأخلاقية: فإذا استطاع كل شخص أن يتوصل عقليًا إلى أن يعرف الخير المشترك وضرورة التعاون الذى يحدثه، فإن الشعور ببشرية مشتركة ينبعث فى نفسه بصورة أخلاقية. ومتى تمت البرهنة على صحة وجهة النظر هذه عن طريق أفكار يشارك فيها الجميع، وعن طريق عادات يلاحظها الجميع، ينتج عن ذلك تطور المؤسسات الملائمة فى الحال.

ولا يمكن أن يكون هناك نظام فى المجتمع طالما بقى جزء من تفكيرنا وحياتنا فى المستويين اللاهوتى والميتافيزيقى، ولم يصل سوى جزء من هذا التفكير إلى المرحلة الوضعية. ولابد أن يقبل كل منا الموقف الوضعى من أوله إلى آخره. وعلاوة على ذلك، لا يستطيع الإنسان العادى أن يستنبط تفاصيل العلوم الطبيعية لنفسه؛ لأنه يقبل توجيه الخبراء الموثوق به. ويصدق ذلك على علم الاجتماع؛ إذ ينبغى على الخبراء، فى هذا العلم أيضًا، أن يوجهوه. وبالتالى، لكى يتم الانتقال إلى المرحلة الوضعية فى المجتمع، قد تكون الدكتاتورية المتقدمة والقصيرة إلى حد معقول ضرورية لتوجيه التفكير العام والتعاطف فى الاتجاه الصحيح. وربما يفسر ذلك قبول كونت «للحركة الانقلابية» الحديثة التى قام بها لويس نابليون بونابرت فى عام ١٨٥٢، دون أن يدرك أن هذه «الحركة» لن يتبعها تنصيب المذهب الوضعى، بل يتبعها إحياء الحكم الامبراطورى. وكان لديه فى وقت ما أمل فى الامبراطور الروسى، نيقولا الأول، الذى تخيل، أنه ينظم دخول الأسفار إلى ممتلكاته بحكمة. ولقد كان حكم كونت على مقاصد حكام عصره خاطئًا بالتأكيد. (فمنذ عصر كونت كان للعالم تجربة ملحوظة بالديكتاتوريين. وربما تشكك المرء فيما إذا كان يمكن لأى ديكتاتور أن يحقق انتصار العلم الحقيقى، والغيرية، والعلم الاجتماعى فى مملكته، أو يوجه أفكار شعبه ومشاعره بحكمة. ومع الفشل الواضح للديمقراطية فى الثورة الفرنسية، يستطيع المرء، على أية حال، أن يفهم سبب اعتقاد كونت أن الديكتاتورية قد تكون مرغوبة فى فترة انتقالية).

أما علم الاجتماع الدينامى ، فهو تفسير أبعد إلى حد كبير لقانون المراحل الثلاث. فهناك صور مختلفة للتنظيم الاجتماعى والسياسى تناظر المستويات العقلية التى تعنيها

المراحل الثلاث. فالمرحلة اللاهوتية يلازمها التنظيم العسكرى؛ فالحرب مستمرة، ويُفرض النظام وطاعة القانون؛ وهناك تقسيم فعال للوظائف بين الجنود والعبيد الذين يدعمون الجند بعملهم. والمرحلة الميتافيزيقية مرحلة انتقالية، تصبح فيها الصناعة أفضل طريقة لجلب الإنتاج وأكثر توفيراً له، وتقل أهمية الجندى مقارنة بالعامل، على الرغم من أن الحاجة إليه لا تزال موجودة من أجل الحرب الدفاعية. وتثبت الطبقات المتوسطة وجودها وتطالب بحقوقها السياسية. ويجب أن يقوم فقهاء القانون بوزن مطالب كل طبقة وعمل توافق بينها. وترى المرحلة الوضعية أن الصناعة هى المنتصرة؛ فسوف يدرك العمال أن مشكلاتهم لا يمكن أن تحل عن طريق ثورات، وينظرون إلى الفلسفة الوضعية على أنها تكفل لكل واحد الفرص للتطور العقلى وحق العمل. وسيكون ذلك عهد السلام، والتخلص من الثورات الداخلية والحروب الخارجية.

ويقدم كونت صورة مجملة للتنظيم الاجتماعى الذى سيكون فى المرحلة الوضعية بصورة غامضة بعض الشىء. فالتجارة، والصناعة، والزراعة أى كل العمليات الإنتاجية الكبيرة ـ سيديرها المساهمون ـ أعنى أصحاب البنوك، والمقاولين، وكبار ملاك الأرض، وماشابههم. وللتجارة الكبيرة موارد كبيرة وتُدار بتنافس أكبر من التجارة الصغيرة. وسيبث المساهمون روح الشعور بالإنسانية المشتركة فى النفوس، أى أنهم يعرفون مسئولياتهم ويكونون خدمًا مخلصين وأمناء للمجتمع. إن واجبهم سيكون تقديم العمل والإمكانات التعليمية للجميع.

إن القيادة الفكرية والأخلاقية ستكون فى أيدى الكهنة، أعنى العلماء، والفلاسفة، والأدباء، والفنانين، وقادة المجموعات الدينية الوضعية. وسيكون هؤلاء أشخاصًا ذوى دخل قليل، لكن ذوى مكانة عظيمة بسبب علمهم وبصيرتهم الأخلاقية. وسيكون تأثيرهم عظيمًا حتى إن معارضيهم سيمنعون المساهمين من إساءة استعمال قوتهم، أو يمنعون العمال من أن يتحولوا إلى العنف والبطش. وستكون سلطة الكهنة أخلاقية خالصة، وسيدعمهم الرأى العام، ويجعلهم منتصرين متى استحقوا أن يكونوا كذلك.

وستمارس النساء تأثيراً روحيًا هامًا. وكونت ليس من أنصار المرأة الذين يناصرون حقوقها. غير أنه يعتقد أنه ينبغى احترام النساء وتقديرهن، وأن صحبتهن وقدوتهن تجعلان الرجال أكثر ودًا وتعاطفًا، وتقويان الغيرية.

إن أخلاق المرحلة الوضعية بسيطة. وهى تؤكد الغيرية، حب البشرية العام. وسيدفع كل فرد فى كل طبقة من طبقات المجتمع حبه للبشرية وإخلاصه لها، حتى إنه يشترك مع الآخرين فى العمل على ترقية الخير العام. ولا يمكن أن تتبدل طبيعة الإنسان الأساسية تمامًا، التى تكون، فى الأصل، أنانية، لكن يستطيع الناس أن يصبحوا أكثر غيرية عن طريق الذكاء المتزايد، والتعاطف، ويكتسبوا المشاعر التى لا غنى عنها لنجاح المجتمع الجديد.

٦ ـ الدين

يضع كونت فى كتابه «السياسة الوضعية» الأخلاق، التى يعنى بها أساسًا دينه الجديد الخاص بالمذهب الوضعى، فى قمة الترتيب الهرمى للعلوم. ولم يغفل، مثل كثير من معاصريه، الخصائص الكثيرة الممتازة الموجودة فى ديانة والديه الكاثوليكية الرومانية، التى تربى عليها فى طفولته، وأعجب بالسلطة الأخلاقية والنظام اللذين تعهدت بهما الكنيسة فى العصورالوسطى. ولابد أن يحافظ المذهب الوضعى على القيم الحقيقية التى قامت عليها الكنيسة فى الماضى.

ولما كان كونت يرفض كل ميتافيزيقا، كان من المستحيل بالنسبة له أن يقبل وجود الله من حيث إنه فاعلية موجودة وراءالظواهر التى تكون قوانينها من مهمة العلوم الوضعية أن تصوغها، ومن مهمة الفلسفة الوضعية أن تفسرها وتوّحدها. واضطر الناس، من ناحية أخرى، إلى أن يجدوا بديلًا لله الذى أعطوا له ولاءهم الأسمى وإخلاصهم فى الماضى. ووجد كونت البديل فى «البشرية» ـ أى الموجود العظيم (Le Grand Etre)، الذى ينطوى على كل ما عُمل فى الماضى من أجل إصلاح البشر. إنه يجب علينا أن نتأمل البشرية، فى أوقات منتظمة فى لقاءات عامة وفى خصوصية خلواتنا، بدلًا من الصلاة لله. والبشرية تجاوزنا من حيث إننا أفراد؛ فهى تدوم من عصر إلى عصر؛ وهى تشمل كل النفوس النبيلة التى تعيش من أجل البشرية وتعمل من أجلها؛ إنها يجب أن تكون موضوع إخلاصنا الأسمى. ولابد أن تُرتل الترانيم الدينية للبشرية، وأن تؤدى الخدمات الدينية العامة على شرفها.

وقلد كونت صفات أخرى للمذهب الكاثوليكى فى دينه الجديد، فيذهب إلى القول بأن البشرية تصبح عضوًا من أعضاء الثالوث: أما العضوان الآخران فهما الطاغوت

(الفتش) الأكبر (أى الأرض)، والوسيط الأكبر (أى المكان) الذى تتحرك فيه الأرض.

ويقترح كونت تقويمًا وضعيًا بديلًا للتقويم العام المسيحى، بأيامه التى تكرم قديسين مختلفين، مكونًا من ثلاثة عشر شهرًا، ويسمى كل شهر باسم إنسان ما عظيم، ويسمى كل أسبوع فى الشهر باسم إنسان عظيم آخر. ولابد من استعادة الخدمات التى قدمها كل إنسان عظيم فى تلك الأوقات ،واستعادة بعثه لحياة أفضل تحققت. ويبدو، بوجه عام، أن اختيار كونت أسماء للتقويم أمر حسن؛ ويعتقد الفلاسفة الوضعيون، على أية حال، أنهم شخصيات كانت حياتهم أكثر أهمية، وكانت قيمهم للبشرية أكثر دلالة من معظم القديسين فى التقويم الكاثوليكى.

ولا يؤمن كونت إيمانًا حرفيًا بالخلود الشخصى. فلقد غالت الكنيسة الكاثوليكية فى التركيز على الأنا Egoism، وجعلت كل فرد مهتمًا بإفراط بخلاصه الخاص فى حياة أخرى. إن الخلود الوحيد الذى نعرفه هو خلود الذكرى الموجودة فى أذهان أولئك الذين سيأتون بعدنا، وستصبح حياتهم أفضل بسبب مجهوداتنا. هذا الخلود يعرفه الجميع؛ ومهما كان الشخص متواضعًا، فإنه إذا بذل إسهامًا متواضعًا فى سبيل الخير العام، فإن تأثيره سيستمر،ويستحق أن يُنظر إليه على أنه أحد المساهمين فى تقدم البشرية. إن تصورًا مثل هذا التصور للخلود يحث على الغيرية، لا على الأنانية؛ يحث على خدمة الآخرين، لا على خلود أنانى للمتعة الفردية. وقد عبرت القصيدة الشهيرةالتى كتبها «چورج إليوت» عن ذلك فى مطلعها، إذ يقول:

«ليتنى انضم إلى الجوقة غيرالمرئية،
الأموات الخالدين الذين يحيون من جديد،
فى عقول صارت أفضل بوجودهم»

وقد استمرت الجمعيات الوضعية فى الوجود منذ عصر كونت، بصفة خاصة فى فرنسا وانجلترا. وهى تلتقى من أجل خدمات دينية، وتنفذ أنشطة تشبه أنشطة الكنيسة، وتهتم برغبة شديدة باستمرار بحركات الإصلاح الاجتماعى. وعلى الرغم من أنها لم تكن كثيرة العدد، فإن بعض قادتها كانوا أشخاصًا ذوى أهمية ـ ومن بين هؤلاء فى انجلترا فردريك هارسون، وريتشارد كونجريف، وإدوارد سبنسر بزل، وجون هنرى بردجز[1].

٧ ـ أهمية كونت

تكمن إسهامات كونت الأكثر أهمية فى قانون المراحل الثلاث وتصنيف العلوم. ويُسلّم كل واحد تقريبًا بأن تلك الإسهامات تحتوى على قدر معين من الحقيقة. إنه على حق فى تأكيده أن الجهد الصحيح لعلم ما يجب أن يكون الكشف عن قوانين الظواهر، وليس البحث عن جواهر ليست فى المتناول، أو عن ماهيات وعلل. ويستحق الثناء أيضًا لأنه رأى أن من المهام الرئيسية للفيلسوف، على الأقل، أن يكشف عن المناهج المشتركة بين العلوم المختلفة، وتنظيم نتائجها فى نوع ما من المركب. وتصبح تلك المهمة صعبة بصورة متزايدة مع تعقد العلوم الذى يزداد، غيرأنها مهمة مرغوب فيها.

ويستحق كونت الثناء أيضًا لأنه أخذ الفلسفة بجدية، لأنه يتصور أن رسالتها تتمثل فى بيان ما يمكن، وما يجب، القيام به، فى ضوء العلم، فى توجيه الإصلاح الاجتماعى. وهنا يكون المتخصصون فى العلوم المختلفة أكثر مقدرة على البحث فى التفاصيل، وتبقى مهمة الفيلسوف وهى أن يبحث عن رؤية أكثر تركيبًا، من الرؤية التى يقدمها المتخصصون.

ويتفق كل واحد اليوم مع كونت على ضرورة استبعاد الميتافيزيقا من العلم الوضعى. وهناك مدرسة الوضعيين المناطقة فى القرن العشرين التى تعتقد أنه يجب التخلى عن دراسة الميتافيزيقا تمامًا. فلا تزال أكثرية الفلاسفة فى الوقت الحالى يؤمنون بقيمة الميتافيزيقا من حيث إنها مهمة فلسفية. فلا تزال المشكلات العظيمة الخاصة بطبيعة الكون النهائية، وعلاقة الذهن بالمادة، وإمكان معرفة العالم الخارجى، وحرية الإرادة، والدعاوى الخاصة بالآلية والغائية، ومسائل شبيهة ذات أهمية تستحوذ على أذهان المفكرين. وحتى على الرغم من أنه لم تُقترح حلول يمكن أن يجمع عليها الفلاسفة، فإن تلك المشكلات أصبحت،على الأقل، مفهومة بصورة أفضل، كما أصبحت كثيرمن الحلول المقترحة مضيئة وموحية.

وبالنسبة لفلسفة الدين، فإن جميع أولئك الذين يرون قيمًا معينة فى الحياة الدينية والتجربة الدينية، سيقرون بأن دين البشرية يحافظ على بعض تلك القيم بصورة ناقصة، وأنها أفضل بكثير من إنعدام الدين تمامًا. ولذلك فإنها تستحق أن يمعن فيها النظر أولئك الذين يعتقدون أنه من المستحيل الوصول إلى نتائج أكثر إيجابية. ومع ذلك، يعتقد معظم الذين يشتغلون بفلسفة الدين أنه يمكن تقديم حجة معقولة ـ إن لم يكن دليلًا مطلقًا ـ على

وجود الله وصورة ما من صور الخلود الشخصى أكثر ثراء فى المضمون مما يريد كونت أن يُسلّم به. ويعتقد كثير منا أن ثقل الدليل، على الأقل، يكمن فى تلك الاتجاهات. ويُعتقد على الصعيد العملى أن الناس يكونون أكثر ثقة فى مجهوداتهم التى يبذلونها من أجل الإصلاح الاجتماعى والإصلاح الشخصى أيضًا، إذا اعتقدوا أن مساعدة من الله تؤيد مجهوداتهم، وأن توقعهم وجود مستقبلى حيث يناجونه ويتحدثون إليه يشجعهم على ذلك.

لقد قام كونت بخدمة جليلة فى إدخال علم الاجتماع الجديد. وربما يكون من حق أى واحد أن ينظر إليه على أنه مؤسسه، وأن هناك مسائل ربما كان هو أول من وجّه إليها الانتباه أصبحت جزءًا من مخزون صنعه كل باحث فى هذا المجال.

٨ ـ الفلاسفة الفرنسيون منذ كونت

كان أكثر القادة شهرة ـ فى الفترة بين كونت وبرجسون ـ أديبان راقت منشوراتهما وآدابهما المفكرين الذين كانوا يبحثون عن فلسفة للحياة فى عصر جديد مضطرب. كان أولهما هو «ارنست رينان» E. Renean (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢)، الذى تدرب فى الأصل على يد رجال الدين الكاثوليك الرومان فى أول الأمر، ثم انسلخ عن معتقدات الكنيسة وبحث عن رؤية جديدة، رؤية دينية إلى حد كبير،تحل محل تلك الرؤى التى تبناها أولئك الذين تركوا الكنيسة إبان عصر التنوير. وساعد المفكرين فى جيله على تقدير الإمكانات المستقبلية للعلم من أجل تلك الأغراض، وعلى قبول اتجاه فطن ويعترف بالجميل تجاه تطور الديانة العبرية القديمة، أى حياة يسوع، وأصول المسيحية، ورواقية «ماركوس أورليوس». ووجه الانتباه إلى قيم الدين الأخلاقية والجمالية، وأكد إيمانه بالله، والخير، والجمال، وكرامة الإنسان وإمكاناته. وكان فى منتصف حياته يفضل مجتمعًا ارستقراطيًا معتدلًا تكون فيه القيادة فى أيدى المثقفين والأكفاء، بينما مال فى سنواته الأخيرة إلى العودة إلى أمل شبابه وهو أن تصبح الديمقراطية مستنيرة ومسئولة.

والثانى هو «هيبوليت تين» H. Taine (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣)، الذى فسر تاريخ الأدب الإنجليزى والأصول التاريخية لفرنسا المعاصرة؛ كما أنه كتب أيضًا فى فلسفة الفن ومشكلات العصر السياسية والاجتماعية. واعتقد أن الحقائق فى تلك الميادين، يمكن